من البحر الأبيض المتوسط إلى شبه القارة الهندية:

تجمعت كل عناصر كارثة إستراتيجية أمريكية

بكل إصرار وعناد، عزز الرئيس بوش تدخله العسكري في العراق وينوي مواجهة إيران، لاشيء حوله عن مساره، لا خسائر جيشه ولا رفض الناخبين الأمريكيين ولا معارضة عدد كبير من العواصم الأجنبية. وباسم التهديد الشيعي يحاول البيت الأبيض أن يجمع حوله قادة عربا متعاونين ولكنهم مترددون بخصوص مصداقية الإدارة الأمريكية.

بقلم: هشام بن عبد الله العلوي

بعد الثورة الإيرانية سنة 1979، أغرت بعض المسؤولين السياسيين الأمريكيين فكرة أنه بالإمكان استعمال القوات الإسلامية لمواجهة الاتحاد السوفياتي. ووفق هذه النظرية التي بلورها زبيغنيو بريزينسكي، مستشار الأمن القومي للرئيس جيمي كارتر، هناك «قوس أزمة» يمتد من المغرب إلى باكستان، وفي هذه المنطقة بالإمكان تعبئة «قوس الإسلام» لتطويق الهيمنة السوفياتية. ألم يسبق أن استُعملت هذه القوات الإسلامية المحافظة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي لتهميش وإفشال الأحزاب الوطنية العلمانية واليسارية في المنطقة بداية من إيران سنة 1953؟ ألا يمكن أن تكون إيران الأصولية المحفز لتمرد إسلامي في قلب الاتحاد السوفياتي؟

بعد ذلك، تأرجحت الولايات المتحدة بين عدة سياسات في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. لم يكن لها سوى هدف مزدوج، النصر في الحرب الباردة ودعم إسرائيل، لكن الوسائل المستعملة والدول المدعومة اختلفت بشكل متناقض في بعض الأحيان. فالولايات المتحدة دعمت رسميا العراق في الحرب ضد إيران (1988/ 1980) في الوقت الذي وافقت فيه على تسليم أسلحة إسرائيلية لإيران، في ذلك الوقت، كان المحافظون القريبون من تل أبيب يعملون بنشاط من أجل تحول لصالح طهران، لأن إسرائيل كانت لاتزال تعتبر القومية العربية العلمانية كعدو أساسي لها وتدعم الإخوان المسلمين في الأراضي الفلسطينية المحتلة لمواجهة منظمة التحرير الفلسطينية. هذه الإستراتيجية بلغت أوجها من خلال تحالف واشنطن مع العربية السعودية، وباكستان سمحت على الخصوص في الثمانينيات، بخلق جيش جهادي دولي لمحاربة الاتحاد السوفياتي في أفغانستان.

في 1990 وبينما كان الاتحاد السوفياتي ينمحي، بنت الولايات المتحدة تحالفا دوليا لطرد الجيش العراقي من الكويت، وردت دول عربية من سوريا إلى المغرب، إيجابيا على دعوة تستند إلى القانون الدولي ومقررات منظمة الأمم المتحدة، وحصلت على ضمان أن الأمر لا يتعلق فقط بإنقاذ دولة بترولية صديقة، ولكن بإقامة نظام جديد يرتكز على العدالة الدولية.

وبمجرد استعادة الكويت لسيادته، يجب أن تطبق جميع قرارات الأمم المتحدة بما فيها تلك التي تنص على الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي الفلسطينية المحتلة.

ورغم الضغوط، قررت الإدارة الأمريكية عدم الإطاحة بنظام الرئيس صدام حسين «لإسقاط صدام.. كان علينا أن نرسل قوات عسكرية، وبعد التخلص من صدام حسين وحكومته، كان علينا أن نضع حكومة جديدة. ولكن حكومة من أي نوع؟ حكومة سنية أم حكومة شيعية، حكومة كردية أم نظام بعثي؟ أو ربما كنا نريد إشراك بعض الأصوليين الإسلاميين؟ كم من الوقت كان علينا أن نبقى في بغداد لإبقاء وتثبيت هذه الحكومة؟ ماذا كان سيحصل بعد انسحاب القوات الأمريكية؟ كم من الخسائر كانت ستقبلها الولايات المتحدة في محاولة لتثبيت الاستقرار؟ رأيي هو أنه... كنا سنرتكب خطأ لو وجدنا أنفسنا غارقين في المستنقع العراقي، والسؤال الذي يحضرني هو: كم يستحق صدام حسين من الخسائر الأمريكية الإضافية؟ الجواب هو: بالتأكيد القليل». هذا الرأي كان هو رأي كاتب الدولة الأمريكي في الدفاع آنذاك، ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش...

وأولئك الذين كانوا يوصون بإلحاح بـ «تغيير النظام» في بغداد يمكن طمأنتهم بالعقوبات المفروضة على العراق طيلة أكثر من عشر سنوات. ونظموا أنفسهم في جماعات ضغط منها جماعة الضغط المسماة «مشروع من أجل القرن الأمريكي الجديد» (project for the new American Century)، وبنوا بشكل ممنهج دعما سياسيا لهجوم قادم على العراق متى سمحت بذلك الظروف.

في غضون ذلك، كان الاسرائليون مرتاحين لرؤية أنه تم التخلي تدريجيا عن محاولة كاتب الدولة الأمريكي في الخارجية جيمس بيكر تطبيق السياسة الأمريكية الرسمية في فلسطين التي تبلورت انطلاقا من مؤتمر مدريد لحل الصراع العربي . الإسرائيلي المنعقد في أكتوبر 1991. و«مسلسل السلام» لم يعد بعد 1996، سوى غطاء لمضاعفة عدد المستوطنين في الضفة الغربية.

وإلى الشرق من «قوس الأزمة» هذا، كانت نهاية الحرب في أفغانستان تحسم بين قادة الحرب في تحالف الشمال وحركة طالبان. ومع نهاية الحرب الباردة، اتجهت الولايات المتحدة كليا نحو باكستان التي انخرطت بدورها في نظام عسكري إسلامي توفر له أفغانستان الإسلامية عمقا استراتيجيا ضد الهند.

وسمح فوز طالبان الذي هيأت له بشكل واسع مصالح المخابرات العسكرية الباكستانية، سمح لإسلام آباد بتعزيز روابطها مع النظام الجديد.

هكذا، وطيلة هذه السنوات، لم تأخذ الولايات المتحدة في الاعتبار تطلعات الشعوب العربية والإسلامية، سياسات تم تنفيذها وجيوش تمت تعبئتها وتحالفات بنيت وتفككت وحروب جرت فوق أراض وأجساد العرب والمسلمين، ولكن لأسباب كانت دائماً.

مرتبطة بمصالح أخرى. والسياسات غير المنسجمة والمتحولة سواء تجاه العراق أو إيران أو الأصوليين الشيعة والسنة أو إيديولوجية الجهاد أو الديكتاتورية والديمقراطية أو الملكية المطلقة أو ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية أو

المستوطنات الإسرائيلية ومسلسل السلام الخ. تجسد ذلك بوضوح، فالولايات المتحدة تعبأت من أجل أهدافها الخاصة – سواء لضمان تموينها بالبترول أو ربح الحرب الباردة ولتأكيد هيمنها أو لدعم إسرائيل – وبمجرد ما يتم بلوغ احد هذه الأهداف، تنسى جميع انشغالات العرب و المسلمين التي يثيرونها لكسب دعمهم.

وليس أكثر إهانة للعالم العربي والإسلامي من ذلك الجواب الشهير للسيد بريزنسكي ثلاث سنوات قبل 11 شتنبر 2001، عندما رد على سؤال حول الأشياء المحتملة التي يمكن أن تكون قد أثارت أسفه لكونه سمح، بفضل الدعم الأمريكي، بقيام حركة جهادية لإثارة الغزو السوفياتي لأفغانستان، رد بقوله: «آسف على ماذا؟ ماهو الأهم بالنظر إلى تاريخ العالم؟ طالبان أو انهيار الإمبراطورية السوفياتية بعض المتهيجين الإسلاميين أو تحرير أوربا الوسطى ونهاية الحرب الباردة؟».

فعلى مثل هذا المسرح جرت الأحداث التي غيرت العالم خلال خمسين سنة الأخيرة، ومنذ هجمات 11 شتنبر إلى اجتياح واحتلال العراق سنة 2003 النصر الأمريكي الوحيد الممكن، كان يمكن أن يكون هو انتقال سريع نحو دولة مستقرة، موحدة ديمقراطية وغير دينية وبالأخص غير محتلة. انه رهان صعب و لكنها خسرته بل يذهب جنرال أمريكي متقاعد إلى حد القول أنها اكبر كارثة إستراتيجية في تاريخ الولايات المتحدة وهذه الهزيمة حتمية.

والرابح بكل تأكيد، هي إيران. فاستراتيجية تفكيك الجيش والبنيات البعثية للدولة العراقية سمح بالقضاء على العدو التقليدي لطهران بينما ساعدت الثقة الأمريكية في رجال الدين الشيعة. حلفاء إيران داخل العراق. وهكذا قوت واشنطن الدولة التي كانت تدعي انها تحاربها.

الانعكاسات هائلة بالنسبة للولايات المتحدة وللعالم العربي الإسلامي برمته، والقومية العربية العلمانية واليسارية، التي حددت الإطار الإيديولوجي لمواجهة الهيمنة الغربية، تراجعت أمام تيارات إسلامية تغلف هذه المقاومة في إيديولوجيات محافظة جدا. فالصراعات السياسية حول الاستقلال الوطني وطرق التنمية تتداخل مع الصراعات الدينية والثقافية والطائفية. هذا التحول في النموذج شجعه في بعض الأحيان الغرب. واليوم، فإن الهزيمة الأمريكية في العراق، تعطي لطهران مناسبات أخرى لاستعادة مشعل القومية العربية تحت راية الإسلام.

الجمهورية الإسلامية تبدو كزعيمة لجبهة مقاومة جديدة تمزج بين القومية العربية وموجة المقاومة الإسلامية المتصاعدة. وهي تتوفر على مكاسب أساسية لذلك: بإمكانها أن تسهل أو تعقد وضعية القوات الأمريكية. وباستطاعتها أن تهزم الإسرائيليين في لبنان بفضل حلفائها في حزب الله، بل بإمكانها أن تمد يد المساعدة للفلسطينيين من خلال دعمها لحماس. ونفوذها يمتد حتى المناطق البترولية للخليج والعربية السعودية ذات الأغلبية الشيعية. أكثر من ذلك فانها في موقع يسمح لها بملء فراغ السلطة إقليميا بعد تدمير دولة العراق والتأثير على الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وتغيير طبيعة العلاقات التاريخية بين الشيعة والسنة.

فالتهديدات، ولاسيما العسكرية الأمريكية والإسرائيلية لا تؤدي سوى إلى تقوية الأهمية الإستراتيجية لإيران وإبراز دورها كرائد لمقاومة العالم العربي الإسلامي، خاصة وان واشنطن وتل أبيب تتخبطان في تناقض، فهما مقتنعتان بضرورة التدخل

العسكري، ولكنهما يعرفان انه لا يمكن ان يكون إلا محدودا في تنفيذ ضربات جوية وفي عمليات للقوات الخاصة. الا ان مثل هذا الهجوم لا يمكن أن يدمر النظام بل على العكس. فهل لهذا السبب يطرح الرئيس الأمريكي ونائبه إمكانية اللجوء إلى السلاح النووي؟ صحيح أن عواقب مغامرة كهذه على المستوى الإقليمي والدولي لن تكون محسوبة ولكن لابد للولايات المتحدة ان تستعيد مصداقيتها و تثير من جديد الخوف الذي يبنى إمبراطوريتها.

هناك إستراتيجية أخرى تناقش في واشنطن تتمثل في استغلال الانقسام المذهبي بمساعدة العربية السعودية. وهناك اتجاهان متناقضان يعملان في هذا السياق: الاتجاه الأول هو التقريب بين السنة والشيعة خاصة منذ حرب لبنان في صيف 2006 التي كشفت بوضوح الروابط القوية بين طهران وحزب الله، والتي حولت الشيخ حسن نصر الله إلى بطل في العالم العربي، وبدرجة اقل حماس. وفي سابقة من نوعها، يؤكد رجال دين سنيون محترمون ان الخلافات مع السنة تتعلق بجوانب دينية بسيطة (الفروع وليس الأصول) . والاتجاه الثاني هي التوترات التي أبرزها الاحتلال بين الشيعة والسنة لاسيما في العراق، خاصة وان السكان الشيعة المتمركزين في مناطق إستراتيجية منذ قرون، تعرضوا فيها لمعاملة سيئة ودونية من طرف السلطات السنية. وهذا ما يجعلها أرضا خصبة لغضبهم وعدائهم. وعلى العكس، فإن تجاوزات الملشيات الشيعية والإعدام المذل لصدام حسين يدفعان السنة إلى الكراهية.

ويعتقد بعض المسؤولين الأمريكيين ان الرياض يمكن أن تصبح ممول حركة سنية لمقاومة الشيعة المارقين، والنظام السعودي يعارض بقوة تنامي هيمنة المذهب الشيعي والجمهورية الإسلامية في المنطقة.

ووعدت بحماية السنة العراقيين إذا اقتضى الأمر. فهل تستطيع العربية السعودية وإمارات الخليج ومصر والأردن والأكراد والسنة العراقيون واللبنانيون وحركة فتح مواجهة هيمنة إيران الشيعية وسوريا العلوية وحلفاءهم حزب الله اللبناني وحركة حماس الفلسطينية؟. وحتى يحظوا بالمصداقية، على «المعتدلين» العرب أن يتمكنوا من تقديم حل عادل وسريع للمشكل الفلسطيني. ولكن إذا ما انخرطت الولايات المتحدة وإسرائيل في هذه المغامرة، فذلك من أجل التملص من أي حل توافقي جدي.

مثل هذه الإستراتيجية المبنية على التوتر العقائدي ستقود إلى حرب أهلية بين المسلمين، ومن سيشاركون فيها سينظر إليهم كعملاء يمزقون المنطقة لحساب إسرائيل والولايات المتحدة. وأي قوة مسلمة سنية أو معادية للشيعة ستساعد؟. الرأي العام الأوربي وحتى الأمريكي قد يكتشف برعب أن حكومات بلدانهم بصدد تشكيل «جيوش سلفية للجهاد» من جديد. القاعدة تحت اسم جديد ومثل هذا السيناريو لن يقود إلى «النصر» بل إلى سلسلة جديدة من الأزمات.

هذه الإستراتيجية يصفها المحافظون الجدد بعدم الاستقرار البناء (أو الهدم البناء) ولكن المراقب الذكي يسميها بشكل ملائم تدمير الدول. والولايات المتحدة قبلت في النهاية مثل هذا التوجه في لبنان وفي فلسطين. وإذا ما حللنا النتائج وليس النوايا يمكن أن نفهم لماذا يستنتج العرب والمسلمون أن سياسة واشنطن في الشرق الأوسط ليست لإنقاذ الدول المفلسة ولكن لإنتاجها.

فالهجوم ضد لبنان الذي خلف دمارا كبيرا أدى إلى هزيمة عزلت إسرائيل أكثر في المنطقة وفي العالم، عسكريا لم يفقد

حزب الله قدرته على التواصل مع مقاتليه وبث رسائله إلى السكان عبر الإذاعة والتلفزة وتكبيد المهاجمين خسائر أو إطلاق قذائف ضد إسرائيل، والإسرائيليون لم يبلغوا أيا من أهدافهم المعلنة ولا نزعوا سلاح حزب الله ولا أعادوا جنودهم الأسرى.

والسؤال المطروح بالنسبة لإسرائيل في لبنان كما هو مطروح بالنسبة للولايات المتحدة في العراق هو معرفة ما إن كانوا قادرين على قبول هذه الهزائم أو سيحاولون مضاعفة الرهان. هل هذه الهزائم هي مؤشرات لحروب من جيل جديد؟ أم أنها مؤقتة فقط؟ هناك شيء أكيد: نموذج النصر «صفر قتيل» التي روج له خلال حرب الخليج (1990 – 1991) أو في البلقان، عبر قصف جوي مكثف واستعمال أسلحة متقدمة قد انتهى، الرهان أصبح هو التحكم على المدى المتوسط وولاء السكان الذي لا يمكن أن تضمنه القوات الجوية والذي يتطلب ثمنا سياسيا وبشريا مهما.

وواشنطن أدت ثمنا باهظا لدورها في هذه الحرب الصغيرة ، وصورة الوزير الأول اللبناني فؤاد السنيورة والدموع في عينيه وهو يناشد الولايات المتحدة منع تدمير بلده يمكن اعتبارهما كتحول. وحركة 14 مارس أخذت السلطة بفضل «ثورة الأرز» التي يدعمها البيت الأبيض، بل ويقدمها كنموذج للإصلاح الديمقراطي الذي يريد الرئيس جورج بوش تشجيعه في العالم العربي . ولكن أمام رغبة إسرائيل في تلقين لبنان درسا، تم التخلي عن السنيورة. فواشنطن لم تمنع فقط أي وقف لإطلاق النار طيلة شهر، بل زودت إسرائيل بأسلحة مدمرة.

ونتج عن ذلك، ما وصفه السيد السنيورة بالتدمير الذي لا يصدق للبنية المدنية اللبنانية، وأيضا إضعاف الحكومة نفسها، وحزب الله يشترط اليوم لعب دور أكثر أهمية، وفي «ثورة أرز» معكوسة، نظم مظاهرات شعبية حاشدة سلمية ومنظمة خاصة به تسخر من التكتيكات التي تشجعها الولايات المتحدة والغرب. والولايات المتحدة التي «لا تخشى المشاركة» في هذا الصراع الداخلي، تضاعف حاليا مساعداتها للجيش اللبناني وقوات الأمن الداخلي التي تكثف من تجنيد القوات في صفوف السنة والدروز، هذه السياسات، التي لا تحظى بما يكفي من التعليق في الولايات المتحدة، مدانة في الصحافة العربية، الإسرائيلية والعالمية. وبعد هذه الحرب سيكون من الصعب إقناع العالم العربي والإسلامي بأن الولايات المتحدة غير مستعدة لخيانة أي حليف أو أي مبدأ للعدالة في سبيل وحيد هو دعم إسرائيل.

تدمير البنية التحتية المدنية، إضعاف الانسجام الاجتماعي والسياسي، خلق منطق يؤدي نحو صراع طائفي وحرب أهلية: عندما تسارعت هذه الدينامية في العراق، كان الأمر يبدو وكأنه يتعلق بنتيجة رهيبة لم تخطط لها واشنطن، وعندما نجد نفس هذه العناصر في لبنان، يمكن أن نتحدث عن مصادفة سيئة، ولكن عندما ترتسم دينامية مشابهة في فلسطين، لم يعد عدد من المراقبين يترددون في الحديث عن «نموذج» للإستراتيجية الأمريكية.

فالأراضي الفلسطينية تعيش أزمة إنسانية كبيرة، ومنذ فوز حماس في انتخابات يناير 2006، انضمت الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي لإسرائيل في محاولة لتجويع الفلسطينيين ودفعهم إلى رفض حكومتهم المنتخبة ديمقراطيا. والنتائج المتوقعة لهذه الهجمات هي انهيار النظام الاجتماعي والانزلاق نحو حرب أهلية.

ويصف مراقب أمريكي متبصر الوضع المقلق كالتالي: «الفلسطينيون في غزة يعيشون محاصرين في غيتو بغيض وآهل بالسكان محاصرين من الجيش الإسرائيلي وحاجز كهربائي ضخم، لا يمكنهم مغادرة أو دخول قطاع غزة ويتعرضون لهجمات

يومية.... ومحاولات إسرائيل فبركة انهيار للنظام والقوانين، وزرع الفوضى وخلق حالة شح شاملة ظاهرة في شوارع مدنية غزة نفسها حيث يمر الفلسطينيون أمام أنقاض مبنى وزارة الداخلية الفلسطينية ووزارة الخارجية ووزارة الاقتصاد الوطني ومكتب الوزير الأول الفلسطيني وبعض المؤسسات التربوية التي قصفها الطيران الإسرائيلي... والضفة الغربية تغرق بسرعة في أزمة مماثلة لأزمة غزة... ماذا تتصور الولايات المتحدة وإسرائيل أن تربح بجعل غزة والضفة الغربية صيغة مصغرة للعراق؟.... هل يعتقدون أنهم بذلك سيصلون إلى إضعاف الإرهاب ووقف العمليات الانتخابية وإقرار السلام؟».

تم بلوغ مرحلة جديدة بتسليم الولايات المتحدة لأسلحة، بمساعدة من إسرائيل، إلى «عناصر القوة 17 المرتبطة بالرجل القوي في فتح محمد دحلان». وحسب ممثلين رسميين لمصالح الأمن الإسرائيليين والفلسطينيين، فإن هذه الشحنات من الأسلحة الأمريكية أشعلت سباقا للتسلح مع حماس».

ومهما كانت النوايا فإن منطق التفكيك الاجتماعي والحرب الأهلية يتبلور عبر السياسة الأمريكية، في ثلاث دول تحددها إسرائيل كبؤر مقاومة لطموحاتها الجهوية. وهناك نواة صلبة من الصهاينة اليمنيين يتمنون إخضاع الفلسطينيين أو ترحيلهم من جميع الأراضي التي تتطلع إليها إسرائيل، ولبلوغ ذلك، يريدون إضعاف جميع الجيران الممانعين، ومن المخيف ولكنه غير المفاجئ، أن نرى مثل هؤلاء المتطرفين يحتلون مواقع السلطة في الحكومة الإسرائيلية، ومن الصادم أن نرى واشنطن تتبع وربما تكون مهندس مثل هذه الاسراتيجية الهدامة والهدامة للذات باسم فكرة خاطئة عن من هو صديق لإسرائيل.

فلو كانت الولايات المتحدة فعلا صديقا لإسرائيل، يجب عليها أن تكون ليس فقط متحفظة على السير في هذا الطريق، ولكن تقاسم هذه الملاحظة لمراقبة إسرائيلية: «سياسة إسرائيل لا تهدد فقط الفلسطينيين ولكن أيضا الإسرائيليين أنفسهم .. فدولة يهودية صغيرة من سبعة ملايين نسمة (منها 5,5 مليون يهودي) محاطة بمئتي مليون من العرب، تجعل نفسها عدوا للعالم الإسلامي كله. ليست هناك أية ضمانة بأن تستمر مثل هذه الدولة. وإنقاذ الفلسطينيين يعني أيضا إنقاذ إسرائيل».

فهزيمة الولايات المتحدة لا تبدو ممكنة في الشرق الأوسط فقط، بل إلى الشرق أيضا في أفغانستان، فهي تواجه مقاومة قوية ، وبعد 11 شتنبر، لا أحد يشكك بحق واشنطن في ملاحقة أسامة بن لادن والقاعدة بالقوة. وقرار شن عملية عسكرية واسعة تشارك فيها قوات الحلف الأطلسي من أجل إعادة بناء البنية السياسية للبلاد كان ينطوي على مخاطر. ولضمان النجاح، كان لابد من نصر عسكري حاسم يليه التزام مالي وسياسي قوي بنفس طويل يرمي إلى إصلاح المجتمع بالاعتماد على شركاء محليين محترمين وموثوق بهم منخرطين أيضا في طريق الإصلاح. ونضيف أن تحويل قوات وموارد حاسمة في مطاردة القاعدة نحو العراق، يشير إلى الطابع الثانوي الذي يمثله أفغانستان في أعين إدارة بوش رغم العلاقة المباشرة لهذا البلد بهجمات 11 شتنبر، وهو ما يدفع إلى القول بأن «الحرب ضد الإرهاب» تخفي أهدافا غير معلنة.

في الميدان، استندت الولايات المتحدة على زعماء الحرب في تحالف الشمال للحصول على نتائج سريعة، واستعانوا برئيس مستورد لفبركة ما يشبه حكومة مركزية في كابول، وكانوا غير قادرين على القضاء على قادة القاعدة وطالبان، تاركين بسرعة الساحة الأفغانية لفائدة العراق ومازال بن لادن والظواهري يبثان الأشرطة، وطالبان الذين حافظوا على روابط قوية مع قبائل الباشتون على جانبي الحدود الأفغانية الباكستانية، يواصلون تجميع قواتهم ويشكلون تهديدا حقيقيا لقوات الحلف الأطلسي المحاصرة في قواعد ولا تظهر إلا لتنفيذ غارات وعمليات قصف جوي. وذهب وزير الخارجية الباكستاني إلى حد

التصريح بأن على الحلف الأطلسي أن «يقبل الهزيمة» وأن على قواته أن تنسحب.

ومحاولة واشنطن الخاطئة لقيادة حرب واضحة ونبيلة ضد القاعدة انزلقت ليس فقط بسبب تعقيدات القبائل وقادة الحرب الأفغان، بل أيضا بسبب اللعب الخطير والمعقد لباكستان. فهذه الأخيرة في حربها الحيوية من أجل كشمير عليها أن تراهن على جماعاتها الإسلامية الخاصة. وهكذا تدعو إسلام أباد الحلف الأطلسي والحكومة الأفغانية إلى قبول تواجد «طالبان معتدلين» في أفغانستان. هؤلاء الذين تخلت لهم إسلام أباد عن مراقبة إحدى مناطقها، منطقة شمال وزيرستان . وبذلك تكون قاعدة يهاجم منها «طالبان غير المعتدلين تماما» جنود الحلف الأطلسي، بل ويلجأون حاليا إلى تقنيات العمليات الانتحارية . وهو أمر غير مسبوق في هذا البلد. فهل أصبح الترابط مع العراق حقيقة ومن ثم انتهت «الحرب ضد الإرهاب» إلى جعل الولايات المتحدة تابعة لباكستان التي وجدت نفسها كذلك في تحالف بنيوي مع التطرف الإسلامي. إضافة إلى أن النخب والنظام الباكستاني يعتقدون أن بلدهم محمي من التيارات الإسلامية الزاحفة بتراتبياته التقليدية التي تميز هذا المجتمع. وماذا لو تحولت «بكستنة» القاعدة إلى«قوعدة» باكستان؟ ووسائل الإعلام الأمريكية تجهل هذه الظاهرة المقلقة.

وهكذا، يمتد قوس أزمة من دول الشرق الأوسط حتى شبه القارة الهندية. وخلال الأشهر القادمة سيتم اتخاذ قرارات في واشنطن ستزيد من تعميق هذه الأزمات أو ستدخلها في طرق جديدة أكثر إيجابية. وللقيام بهذا التحول على القادة الغربيين أن يفهموا أن القاعدة والبعث وحزب الله وحماس وسوريا وكذا إيران لا يمكن تصنيفها كلها تحت نفس التصنيف الإيديولوجي الغامض «محور الشر». هناك روابط بين الأزمات ولكن يجب كذلك البحث على تفكيك وتحييد مختلف مكوناتها.

وهكذا فسوريا بلد لا يهدد الولايات المتحدة، والذي ساعدها من قبل في عدة مناسبات، والذي له أيضا مصالحه الوطنية المشروعة في الصراع : لابد من الوصول معها إلى اتفاق حول الانسحاب من هضبة الجولان، والتي لا يمثل احتلالها من طرف إسرائيل أية مصلحة لأمريكا. نفس الشيء بالنسبة لحزب الله في لبنان وحماس في فلسطين اللذين يتحركان أساسا وفق مصالحهما الوطنية. وبإمكان الولايات المتحدة أن تتخلص من عدد من المشاكل ومن تم خدمة مصالحها الخاصة بما فيها هزيمة «الإرهاب» المتطرف الحقيقي. ومن أجل ذلك، عليها أن تعترف أن جميع هذه المجموعات ليست ملحقات أو مستنسخات للقاعدة، وأنها لن تصبح كذلك أكثر مما أصبحت فيتنام أداة «لإمبراطورية الشر». وبإمكان المفاوضات أن تجعل من كل واحد من هذه الدول أو هذه الحركات خصوما يمكن التعامل معهم.

بعض الأصوات النافذة في قلب النظام السياسي الأمريكي تطالب بتغيير المسار: وتقرير بيكر / هاميلتون أكبر تعبير عن ذلك. من جانبه دعا الرئيس الأمريكي الأسبق كارتر إلى فتح نقاش نزيه حول السياسة الأمريكية في فلسطين. ولإصلاح الخسائر التي وقعت لابد من الاعتراف بأن قرارات خاطئة قد اتخذت والسير نحو تحولات سياسية جدية. وهذا يشترط التخلي عن فكرة أن الاستعمال الأحادي للقوة العسكرية وحدها بإمكانه حل المشاكل السياسية والاجتماعية المعقدة.

وهذا يشترط أيضا التخلي عن الدعم اللامشروط لإسرائيل. وفوق هذا وذاك يتطلب ذلك التخلي عن فكرة أن مختلف شعوب وأمم العالم العربي الإسلامي هي عناصر متداخلة تندرج في نفس النسق الإيديولوجي، بالإمكان التلاعب بها كما يحلو من أجل مصالح القوى الكبرى، من أجل مطامح ترابية لمستوطنين إسرائيليين أو من أجل أحلام «أمة» خيالية للقاعدة.

حان الوقت للقطع مع المقاربة الإيديولوجية والعودة إلى الواقعية.

ترجمة محمد خيرات

□ هذا المقال نشرته «لوموند دبلوماتيك» عدد فبراير 2009
وهو مستوحى من محاضرة ألقاها
الأمير هشام يوم 29 يناير 2009 بجامعة كاليفورنيا.